أسلوبية الانزياح بين التراث العربي والأسلوبية الحداثية

أ. محمد سامي سعيد أبو هدبة.

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة اليرموك.
البريد الإلكتروني:*abuhadba1974@yahoo.com*

تاريخ الإرسال: 01/ 11/ 2017؛ تاريخ القبول: 15/ 12/ 2018.

الملخص:

تعتبر أسلوبية الانزياح من أهم المناهج التي قامت عليها الأسلوبية الحديثة في دراستها للنص، لذا يحاول البحث دراسة أسلوبية الانزياح وإظهار أهميتها في معالجة النصوص، من خلال تتبع ما يتعلق بهذه الأسلوبية. وقد وقفت هذه الدراسة على أمور كثيرة ومهمة تتعلق بأسلوبية الانزياح بداية بتناول مفهومها لغة واصطلاحا، ثم مناقشة بعض الإشكاليات التي وقعت فيها هذه الأسلوبية كالترجمة المتعددة للمفهوم الواحد، أو إشكالية المعيار أو إشكالية تعدد المصطلح، وكل هذه القضايا تناولها البحث بالمناقشة والدراسة، وإلى جانب ذلك تناول البحث دراسة جذور هذا المفهوم في الدرس التراثي العربي القديم، الذي عرف المفهوم تطبيقا عمليا. وقد أقر أغلب البلاغيين والنحاة مدى الأهمية الجمالية للانزياح في لغة الشعر، لكن على الأكيد دونما تعمق أو تقنين علمي للمصطلح كما عرفه الغرب.

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية؛ الانزياح؛ الانحراف؛ التراث العربي؛ الحداثية.

Abstract:

The Ecart stylistics Is considered one of the most important approaches that was based for the modern stylistics for studing texts. So the research is trying to search the study of the Ecart stylistics showing the importance of dealing and treating texts through following what is relating to this stylistics.

This study stands for many important matters that related to the Ecart stylistics, starting with having it's concept linguistic and convention. Then to discuss some of the problematic which has this stylistics fallen in like, multi – translation for one concept or the problematic of criterion or multiplicity of idiom. All these issues the search took it by discussion and study, beside that the search studied the roof of this concept in the old traditional Arabic lesson.

Which recognized the concept practical implementation, as submitted by most rhetorical and syntactical how important is the grace of stylistics in the poetry language, as sure without deep penetration into or scientific rationing for idiom as the westerns known.

Key words: Style; Ecart; Déviation; Héritage arabe; Nouveauté.

البحث:

لقد شاعت أسلوبية الانزياح في الدراسات الأسلوبية، ونالت اهتماما كبيرا من جل الأسلوبيين، إذ عدّ أغلب الدارسين الأسلوب انزياحا، مما جعلهم يطلقون على الأسلوبية علم الانزياحات، ويختزلون الأسلوب فيه.

بداية لا بد من تتبع مفهوم الانزياح لغويا وتطوره، فنجد أن المقابل الإنكليزي لمصطلح (*Ecart*) هو المصطلح (*Deviation*) الموجود أيضاً في اللُّغة الفرنسية، فاللغة الفرنسية قد عرفت الكلمة الاسمية (*Ecart*) في القرن الثاني عشر الميلادي، وفعلها (*Ecarter*) في القرن الموالي، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية العامية (*Exquartare*) بمعنى: الفسخ أو التقطيع أو "التقسيم على أربعة"

أو حتى الطريق المتفرع إلى أربعة اتجاهات، أو المسافة الفاصلة بين الأشياء أو الأشخاص"(وغليسي، ي.2008، عدد:64، ص:190).

ومع مرور الزمن بدأ مفهوم الانزياح بالتكشف، فالكلمة المشتركة بين الإنكليزية والفرنسية (*Deviation*) عرفتها الفرنسية في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية المتأخرة (*Deviatio*) بمعنى الانحراف عن الطريق"(وغليسي، ي.2008، عدد:64، ص:190).

ثم ظهر لكلمة الانزياح التي يقابلها مصطلح (*Deviation*) مقابل آخر وهو مصطلح (*Deviance*) وهما مترادفان يستعملان بالمعنى نفسه، وإن اجتهد بعض الكتّاب –من مثل(ليج *Leech*) - في وضع تمييز فارق بينهما، مؤثرين مصطلح (*Deviance*) على (*Deviation*) إلّا أنّ طابع الشيوع لازم (*Deviation*) في حين انحسر مجال (*Deviance*) الدّلالي في الإحالة إلى بعض الجمل الشّاذّة التي لا تتماشي مع قواعد النّحو(مرادي، م. هـ. 2012، عدد:5، ص:106؛ نقلا عن: رشيد، د. 2009، ص:14).

ونلاحظ مع مرور الزمن أن مفهوم الانزياح بدأ يتكشف أكثر وأكثر، ويظهر بشكل جلي فقد أشار "قاموس غريماس وكورتاس إلى أن هذا المفهوم الذي يشكل أحد التصورات الأساسية للأسلوبية، إنما يعزى إلى دوسوسير في تمييزه بين اللغة والكلام، باعتبار الكلام" مجموع الانزياحات الفردية التي يصنعها مستعملو اللغة" ثم تطور المفهوم في كنف اللغة الأدبية التي تحدد بوصفها" انزياحا بالنسبة إلى اللغة المعيارية اليومية"(وغليسي، ي. 2008، ص:190).

أما قاموس (جون ديبوا) فيشير إلى أن الانزياح "حدث أسلوبي ذو قيمة جمالية، يصدر عن قرار للذات المتكلمة بفعل كلامي يبدو خارقا لإحدى قواعد الاستعمال التي تسمى "معيارا" يتحدد بـ"الاستعمال العام للغة، المشترك بين مجموع المتخاطبين بها(وغليسي، ي. 2008، ص:190).

إذن هنا نصل إلى معنى لغوي يشير إلى مفهوم الانزياح بشكل قريب جدا مما هو متعارف عليه اصطلاحيا.

لقد وقع أحمد ويس على أقدم استعمال لكلمة "انزياح" في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق(كليرفيل، أ. ل.1964، مجلد:39، ج:4، ص:588) في تعريب لمصطلح فرنسي وقد عرب بـ "انزياح الرحم"(ويس، أ. 2005، ص:49).

ولفظ الانزياح كما يشير أحمد ويس هو "أحسن ترجمة للمصطلح الفرنسي (*Ecart*) إذ إنّ هذه الكلمة تعني في أصل لغتها "البعد".حتى إنّ بعض الباحثين والمترجمين من العرب ترجمها بذلك، ولكنّ كلمة "البعد" لا تقوى على أن تحمل المفهوم الفنّي الذي يقوى الانزياح علي حمله"(ويس، أ. 2005، ص:49).

لم تستقر ترجمة كلمة (*Ecart*) على ترجمة واحدة، إذ نجد المسدي نفسه قد ترجمها ترجمات مختلفة فقد كان "أول ظهور لكلمة (*Ecart*) في الترجمات العربية ظهرت في تقديم عبد السلام المسدي لكتاب ريفاتير "محاولات في الأسلوبية الهيكلية"(ريفاتار، م. 1974، عدد:10، ص:280) وترجمها المسدي إلى "التجاوز" ثم عاد وترجمها في كتابه "الأسلوب والأسلوبية" بـ"الانزياح"(عبد السلام، م. 74-97-98-100-102-103-104-105-106-162-163-164-165-218.)، بينما يترجمها في قاموس اللسانيات بـ"العدول""(عبد السلام، م.1984، ص:137؛ حمادي، ص. 1981، ص:52)، وترجمت الكلمة عند آخرين ترجمات لا تخلو من الاضطراب"(ويس، أ. 2005، ص:50)، "على أن ثمة من الباحثين من ترجم (*Ecart*) بالانحراف"(ويس، أ. 2005، ص:52، 50، 57)، ويبدو أن أول من استعمل مصطلح الانحراف من النقاد العرب المعاصرين مصطفى ناصف"(ويس، أ. 2005، ص:39).

ويبرر أحمد ويس سبب اختلاف الترجمات بأنه يرجع إلى اختلاف ثقافة المترجم، يقول: "على أن ما ينبغي ملاحظته هو أن ما يغلب على هؤلاء الذين استعملوا الانزياح هو اعتمادهم ثقافة فرنسية، على حين مال إلى "الانحراف" في الغالب أولئك الذين غلبت عليهم المصادر الإنجليزية"(ويس، أ. 2005، ص:56).

أما المعاجم العربية فإنها تقترب من معنى الانزياح الوارد في المعاجم الغربية بمعنى البعد، وهي تشترك جميعا في إيراد المعنى نفسه لجذر نزح: فـ"نزح الشيء يتزح نزحاً ونزوحاً :بَعُدَ، ونزحت الدَّار فهي تتزح نزوحاً، إذا بعدت، إنّما جَمْعُ منزاح وهي التي تأتي إلى الماء عن بعد، ونزح به وأنزحه، وبلد نازح، ووصل نازح: بعيد"(ابن منظور، ج.1993، ج:2، ص:614).

وإذا ما انتقلنا لمناقشة مفهوم الانزياح اصطلاحا فإننا نجد أن "ليوسبيتزر هو الذي جاء إلى الأسلوبية بمصطلح الانحراف"(خوسيه، م. 1992، ص:30). ومعنى "الانحراف هنا هو مخالفة قواعد تركيب الجملة من حيث تقديم الفاعل مثلا، أو المفعول؛ ولذلك فإن مقولة الانحراف تفترض أصلا مسبقا استقر ورسخ في اللغة ليكون هو المقياس الذي يتحدد به الانحراف، وتعرف به درجة الانحراف وتنوعه"(عزام، م. 1989، ص:51).

ثم شاعت عبارة (فاليري) التي يرى فيها "أن الأسلوب هو في جوهره انحراف عن قاعدة ما، وشاركه في ذلك الرأي كثير من النقاد، دعوا إلى ضرورة أن يتعود الباحث تماما على القاعدة أولا حتى يتمكن من اكتشاف الانحرافات المتفرعة عنها"(فضل، ص. 1998، ص:208).

وبناء على اعتبار الأسلوب انزياحا يعرف (كوهن) الأسلوب على أنه"هو كل ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار العام المألوف"(كوهن، ج. 1986، ص:15)، كما أنه كذلك عند (مورس) "انزياح بالنسبة إلى معيار، أي أنه خطأ، ولكنه كما يقول (برونو) " خطأ غير مقصود"(كوهن، ج. 1986، ص:15)،وكما يقول (تودوروف) أيضا بأنه "لحن مبرر"، وهذا اللحن ما كان ليوجد لو أن اللغة الأدبية جاءت تطبيقا كليا للأشكال النحوية الأولى" (عزام، م. 1989، ص:31).

"إن الأسلوب اعتبر، في غالب الأحيان، انزياحا فرديا، أي طريقة في الكتابة خاصة بواحد من الأدباء. وكان (بالي) نفسه يدعوه "انحراف اللهجة الفردية"، ويعتبره (ليوسبيتزر) "انحرافا فرديا بالقياس إلى قاعدة ما"(كوهن، ج.

1986 ، ص:16)؛ ولذلك هناك كثير من النقاد من اعتبر "الأسلوبية هي علم الانزياحات اللغوية ، والإحصاء علم الانزياحات عامة"(كوهن، ج. 1986 ، ص:16)، "إن القضية تحولت إذن إلى أن يصبح "الانحراف" هو الأسلوب، ويصبح علم الأسلوب هو علم الانحرافات"(عيد ، ر. 1993 ، ص:184؛ عبد المطلب، م. 1994 ، ص:58).

ويعتبر (جورج مونان) الكلام أسلوبا عندما تحتوي العبارة فيه على انزياح يخرج بها عن المعيار. ويضرب أمثلة توضح كيف يصير الكلام أسلوبا بفضل الانزياح، فقولنا: "البحر أزرق" لا يتجاوز كلام الناس. إنه درجة الحيادية ، أو الدرجة صفر للتعبير. ولكن أن نبتدع كما ابتدع "هومير" فنقول: "البحر بنفسجي" ، أو "البحر خمري" ، فإن هذا يمثل حدثا أسلوبيا"(عياشي، م. 1990 ، ص:79).

بينما يرى كثير من النقاد جعل الانزياح كل الأسلوب أمر فيه كثير من الإسراف، تقول عيد: "ولكن المشكلة أن الانحراف أو الخروج عن النمط المألوف قد تعرضت لإسراف شديد ، دفع إلى التركيز على هذا الانحراف، وكأنه جوهر الأسلوبية (عيد ، ر. 1993 ، ص:146).

فليس كل انحراف عن اللغة أسلوبا لذا وجب الحذر "ومع ذلك فالحذر مستوجب، فليس كل انحراف عن القاعدة الأساسية ينبثق منه إبداع فني. فاللغة في خامتها الأولى هي الجدار الخلفي الذي يستند إليه أي أداء، وعليه تتشكل مكونات الانحراف من غير مفارقة لهذا الجدار"(عيد ، ر. 1993 ، ص:150).

وتأكيدا على أن الانحراف قد لا يشكل في كثير من الأحيان أسلوبا مميزا فإن "هناك انحرافات لا يترتب عليها تأثير أسلوبي، كما أن هناك عناصر لغوية ذات أهمية أسلوبية دون أن تكون خروجا على القواعد المعتد بها"(عزام، م. 1989 ، ص:56).

"فإن هذه اللغة "المنحرفة" ربما لا تكون في انحرافها ذات دلالة أسلوبية ، كما أن العكس ـ أيضاـ صحيح، فاللغة غير "المنحرفة" ربما تكون لها دلالات

أسلوبية"(عيد، ر. 1993، ص:184)، "يضاف إلى هذا أن هناك نصوص كثيرة لا ينحرف مبدعوها على حسب مفهوم هذا "الانحراف" كما أن النص لا يكسب قيمة من انحرافاته، فهو أداء فني متكامل له خصائصه الفنية في بنيته الكاملة"(عيد، ر. 1993، ص:185).

ومنهم من رأى أن "التركيز على دراسة الانحراف إهمال لعناصر أخرى لها أهميتها، كما أنه ليس باللازم أن يكون الانحراف هو الدائرة التي يتضح فيها تميز صاحب الأسلوب"(عيد، ر. 1993، ص:185).

وكثر هم الأدباء الذين لا يخرجون عن المعيار ومع هذا فكتاباتهم الأدبية متميزة "إن الأسلوبية هي انحراف عن المعيار، وبالتالي فالأسلوبية دراسة هذا الانحراف، ولكن الأمر لا يخلو من مصاعب متتالية، فهناك كتّاب كبار لا ينحرفون عن المعيار، ولكننا نحس أن لهم فردية أدائية، وأن لهم تميزا فنيا واضحا"(عيد، ر. 1993، ص:188).

ويتفاوت النقاد في نظرتهم إلى قيمة الانحراف فـ"(ثورن) يكبر من قيمته الجمالية، ويطالب بأن يتعدى الانحراف البنية السطحية إلى البنية العميقة كما في الاستعارات والكنايات، وهذا الانحراف هو سر الشاعرية. بينما يتحرز نقاد آخرون من هذا الانحراف. ومن اتخاذه معيارا لجودة الأسلوب الأدبي، لأن المبالغة فيه تقود إلى اعتبار لغة الشعر خاصة، ولا ترتبط باللغة العامة"(عزام، م. 1989، ص:51).

"وبهذا المعنى تعد الشواذات (مزايا أسلوبية) خاصة في اللغة الشعرية، إلا أنها لا تمثل الأسلوب الشعري بكامله في حال من الأحوال، كما أن هذا لا يعني أن اللغة التي تستغني عن الانحراف المعياري يفترض أن تكون أقل شعرية"(ساندريس، ف. 2003، ص:62).

ومع ذلك فقد عدّ بعضهم الانزياح من أهم عناصر الأسلوب "إن الانزياح من الظواهر الأسلوبية ولكنه أهم منها"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:22)، ويؤكد اليافي على أهمية الانزياح بقوله: "الانزياح ظاهرة أسلوبية مكون من أخطر

عناصـــرها ومكوناتها"(الخطيـــب، أ. م. 2009، ص:22؛ نعـــيم، ي. 1983، عدد:451، ص:90).

ويرى الخرشة أن الانزياح من أهم ما قامت عليه الأسلوبية، يقول: "والحق أن ما يجيز لنا القول إن الانزياح يعد من أهم ما قامت عليه الأسلوبية هو أن الأسلوب من حيث هو طريقة الفرد الخاصة في التعبير سيظل دائما مقترنا بالانزياح أو العدول عن طرائق أخرى فردية، ثم أن الأسلوبية نفسها كانت قد جعلت الانزياح منذ نشأتها عماد نظريتها"(الخرشنة، أ. غ. د.ت، ص:14).

وللمسدي نظرة مختلفة إلى الانزياح، فالانزياح عنده "هو احتيال الإنسان على اللغة وعلى نفسه لسد قصوره وقصورها معا"(عبد السلام، م. ص:106).

ويذهب مذهب المسدي في اعتبار الانزياح قصورا من كلا الطرفين، يقول: "وهكذا تظهر لنا قيمة مفهوم الانزياح في كونها ترمز إلى صراع بين اللغة والإنسان، كما ترمز إلى نوع من العجز من طرف الجانبين: عجز من طرف الإنسان بحيث أنه لا يستطيع أن يلم بمجموع نواميس اللغة وطرائقها كلها، وعجز من طرف اللغة بحيث أنها لا تستطيع أن تستجيب لكل حاجة الإنسان في نقل ما يريد نقله. وما الانزياح عند ذلك سوى احتيال الإنسان على اللغة، وعلى نفسه لسد قصوره وقصورها معا"(عزام، م. 1989، ص:51).

لقد جعل كل من المسدي وعزام من ظاهرة الانزياح ظاهرة سلبية تعبر عن قصور الإنسان وقصور اللغة، بينما الانزياح ظاهرة إبداعية تظهر تمكن صاحبها من اللغة وتبحره بها، كما تظهر ليونة اللغة وطاقاتها الكامنة فيها، والتي يفجرها الانزياح. فالانزياح إنما هو خروج عن اللغة إلى اللغة؛ لذلك لا يمكن وصفها بالقصور، لأن هذا القصور لو وجد فنحن حقيقة نسده باللغة. ويرى كوهن "أن الشعر لا يحطم اللغة العادية إلا ليعيد بناءها، وهذه مرحلة ثانية"(كوهن، ج. 1986، ص: 6).

ويقول أيضا إن الانزياح "يخرق إذن قانون اللغة في اللحظة الأولى، وما كان لهذا الانزياح ليكون شعريا لو أنه وقف عند هذا الحد. إنه لا يعد شعريا إلا

لأنه يعود في لحظة ثانية لكي يخضع لعملية تصحيح وليعيد للكلام انسجامه ووظيفته التواصلية"(كوهن، ج. 1986، ص:16).

فاللغة التي ينزاح عنها ثم إليها هي اللغة نفسها، وتؤكد على هذا المعنى حمر العين بقولها: "إن اللغة المنزاحة لا تحل محل لغة ثابتة، ولكن عملية العدول هي عملية بحث في اللغة الغائبة واستحضارها عن طريق تفجير العلاقات الحضورية والعلاقات الغيابية"(حمر العين، خ. 2001، ص:88). وتأكيدا لكلامنا نورد رأيا للباحثة حمر العين أوردته في موضع آخر من بحثها، تقول: "والانزياح بالمعنى الذي نتصوره هو تجربة في اللغة، أو هو اللغة التي أعيد اليها ما كانت تفتقد إليه"(حمر العين، خ. 2001، ص:127).

بينما ترى عيد رأيا آخر مخالفا لمسدي وعزام في نظرتها لظاهرة الانزياح، تقول: "لا ينبغي أن ننظر إلى تلك الانحرافات على أنها رخص شعرية أو ابتداع فردي وإنما هي في الواقع نتاج براعة استخدام المادة اللغوية المتوفرة وتوظيفها الذكي للإمكانات الكامنة في اللغة"(عيد، ر. 1993، ص:148).

والانزياح عند فضل استثمار لطاقات اللغة، فهي ليست قصورا ولا عجزا، "ولعل هذا يتضح بشكل خاص في الحالات التي يرتطم فيها المؤلف بجدار الاستعمال اللغوي العادي ويخرج عليه؛ تلك الحالات التي كانت تعد منذ القدم درجة من درجات الحرية الخلاقة، أو الضرورة الشعرية التي يستبيحها لنفسه الشاعر الكبير وهي على ثقة من أنها لن تعد عجزا ولا قصورا، بل هي استثمار مشروع لإمكانات خارجة عن نطاق التعبير العادي المألوف، وتفجير لدرجة عليا من الشعر لا يتأتى الوصول إليها بشكل آخر"(فضل، ص. 1998، ص:212).

وقديما كان لابن جني نظرة إيجابية لظاهرة الانزياح التي تناولها في معرض حديثه عن الضرورة الشعرية التي اعتبر فيها الخروج عن اللغة ميزة يتميز بها الشاعر المجيد، وهو يرتكبها لا عن ضعف ولا عجز، وإنما عن قوة طبع، فارتكاب الشاعر الضرورة قد يدل على قوته وفصاحته"(ابن جني، أ. ف، 2008، ج:2، ص: 165ـ166).

ويعلق الخطيب على رأي ابن جني حول ظاهرة الخروج عن اللغة المألوفة بأنه خروج لا يعبر عن ضعف "وإذا تعمقنا بعض الشيء فيما يراه ابن جني فإنه من الممكن الوصول إلى أن الشاعر المجيد يستطيع أن يتجاوز الطبيعي والمألوف، ويخرق القاعدة أحيانا محققا ما شاء من الانزياحات، دون أن يعتبر ذلك علامة ضعف"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:48).

وهناك من النقاد من ينظر إلى الانزياح نظرة مختلفة عمن اعتبروه كل الأسلوب، فهو عندهم جزء من الأسلوب، فـ"هو انحراف الكلام عن نسقه المألوف، وحدث لغوي يظهر في تشكيل الكلام وصياغته، يمكن بواسطته التعرف إلى طبيعة الأسلوب الأدبي"(بوخاتم، م.ع. 2005، ص:271)، وكثير من النقاد عدّ الانزياح خروجا(نعيم، ي. 1997، ص:92؛ ونظري، ع. و وليئي، ي.1982، عدد:17، ص105؛ وصولة؛،عبد الله. 1982، ص:144-145؛ الخرشة، أ. غ. ص:5). "ويدقق مفهوم الانزياح بأنه يكون خرقا للقواعد حينا، ولجوءا إلى ما ندر من الصيغ حينا آخر"(عبد السلام، م. ص:103. 104).

وقد وقع النقاد في إشكالية عندما عدوا الانحراف خروجا عن المعيار، فاختلفوا في تحديد المعيار إلى آراء مختلفة وقد "ظلت إشكالية الانزياح مرتبطة بالمعيار بوصفه الأصل"(بو زيان، أ.2013،عدد:84، ص:113).

وحول هذه المشكلة، "يرى (ريفاتير) أن تحديد أسلوبية الانزياح على مستوى المعيار عملية محدودة وضعيفة، وغير ملائمة أصلا، بالنظر إلى غموض ماهية المعيار من جهة، ولأن إجراءات الكتّاب وأحكام القراء، من جهة أخرى، لا تؤسس "اعتمادا على معيار مثالي، ولكن اعتمادا على تصوراتهم الشخصية حول ما هو مقبول كمعيار"(وغليسي، ي.2008، عدد:64، ص:191-192).كما "نعى (هنريش بليث) على أسلوبية الانزياح -في مرحلتها الأولى - عدم تحديدها للمعيار والانزياح تحديدا مباشرا دقيقا"(وغليسي، ي.2008، عدد:64، ص:193).

وتحديد المعيار بالنسبة للانزياح عند الحلواني: "ليس بالأمر اليسير، لأن تحديد هذا الأصل لا يخلو من صعوبة على الرغم من استعانة النقد بعلم اللغة الذي يقدم بيانات واضحة لهذا الأمر"(الحلوني، م. خ. 1981، عدد:232، ص:40. 41)، ويرى العمري "أن تحديد المعيار المنزاح عنه يغدو معضلة"(الربابعة، م. 2014، ص:67؛ العمري، م. 1990، ص:36).

وحول هذه المشكلة أيضا، يقول الربابعة: "والمشكلة الأساسية التي تواجه الانحراف تتمثل بالدرجة الأولى بتحديد طبيعة المعيار الذي يحدث عنه الانحراف، فالانحراف يفترض مسبقا أن هناك معيارا يتم تحديد الانحراف على أساسه. ويبدو أنّ الباحثين راحوا يفتشون عن العنصر الذي يتم الانحراف عنه فسموه "القاعدة" والمعيار، واللغة العادية، والأسلوب المستعمل، واللغة النثرية"(الربابعة، م. 2014، ص:66).

لذلك طرح كثير من النقاد «السؤال الأهم: ما المعيار الذي نقيس به "الانحراف" ؟ ومع كثرة الجدل حول هذا المعيار، فقد ظهرت محاولة "تقنين علمي" لتحديد المعيار، وذلك باعتماد الباحث الأسلوبي على الجانب الإحصائي، ولكن أي إحصاء يقوم به من المفترض أن يقوم بإيجاد "متوسط" إحصائي لجميع الصور اللغوية لكل النصوص. وما يتجاوز ذلك "المتوسط" الإحصائي، وما ينحرف عنه أن يكون هو "الأسلوب"(عيد، ر. 1993، ص:184).

فالمعيار عند (كوهن) هو قانون اللغة(كوهن، ج. 1986، ص: 6)، يقول: "ولكون النثر هو اللغة الشائعة يمكن أن نتحدث عن معيار نعتبر القصيدة انزياحا عنه"(كوهن، ج. 1986، ص:15).

ويكرر الخطيب كلام (كوهن) في أن النثر هو المعيار "وإذا كان العرب قد فرقوا بين الشعر والنظم، فإن تمييزهم بين اللغة الشعرية ولغة النثر كان يستند إلى قانون الانزياح؛ لأن النثر هو الشائع، فهو المعيار، والقصيدة انزياح عنه؛ ولكن هذا الانزياح يحمل قيمة جمالية"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:52).

لكن الربابعة يرى في اعتبار اللغة النثرية هي المعيار كما يرى (كوهن) والخطيب رأي غير دقيق، يقول: "ويبدو أن هذا الرأي غير دقيق، لأن هناك انحرافات يمكن أن تظهر في لغة الأجناس الأدبية الأخرى، فالانحراف لم يعد خاصا بلغة الشعر، إذ إن مظاهر الانحراف من استعارة ومجاز وكناية وتخييل وغيرها قد تتجلى في العمل الروائي والقصصي، بشكل يوحي بأن الحد الفاصل بين ما هو شعري وغير شعري عنصر غير مستقر"(الربابعة، م. 2014، ص:67).

ومنهم من جعل المعيار هو السياق كـ "(ريفاتير) الذي أشار إلى أهمية السياق الأسلوبي حين جعله"(ساندريس، ف. 2003، ص:61) "قالبا تركيبيا خروجه على المألوف ناجم عن عنصر لم يكن متوقعا"(ساندريس، ف. 2003، ص:62؛ ريفاتير، م. 1993، ص:54؛ عياد، ش. م.1985، ص: 148).

ومن النقاد من جعل اللغة العامية هي المعيار كـ "الشكلانيين الروس الذين يقيسون اللغة الشعرية بلغة الحديث اليومي"(الربابعة، م. 2014، ص:67).

إن الانزياح كأسلوب فني ودلالي، له دور كبير في إضفاء الجمال والرونق على النص، وإظهار قدرات الشاعر الإبداعية، فمهمة الانزياح الأولى هي تحقيق جمالية النص، يقول (جاكبسون) متحدثا عن انحراف النص "لتأتي أولى وظائف الشعرية في البحث عن انحراف النص عن مساره العادي لتحقيق وظيفة جمالية"(جاد، ع. م.2002، ص:274.).

ويرى (وولف غانغ إيزر) "أن الانزياحات التي يقدمها النص والتي يسميها (بمواقع اللاتحديد) شرط ضروري لتحقيق جماليته"(وهابي، عبد الرحيم. 2004، عدد: 18، ص:88-89).

ويذهب عزام مذهب (جاكبسون) في نظرته لوظيفة الانزياح، يقول "الواقع أن محاولة تصور الأسلوب كانحراف عن قاعدة خارجة عن النص، هو ابتعاد متعمد من قبل المؤلف لتحقيق أغراض جمالية"(عزام، م. 1989، ص:53).

كما أن التأكيدات المختلفة على أهمية مراقبة الانحرافات تأتي من القناعة بكونها ظاهرة أسلوبية عن طريقها يمكن استخلاص الظواهر الفنية

للأداء التركيبي والوصول إلى نتائج محددة وذلك برصد كيفية تركيب الأداء ونظام الترتيب اللغوي للجمل، ومدى التسلسل والتتابع أو طريقة التشابك بينها وما يؤدي إليه ذلك من معطيات جمالية، أو دلالات وجدانية أو إبانات عن مشاعر خبيئة"(عيد، ر. 1993، ص:148).

والانزياح يكشف عن موهبة الشاعر، يقول حني عبد اللطيف "كما يحيلنا الانزياح -العدول -إلى كشف موهبة الشاعر التي تتمثل في قدرته على الكشف عن الدهشة والمفاجأة وهذا يغذي النص بجماليات متعددة"(حني، عبد اللطيف، د.ت، ص:280)، فـ"الانحراف إذن هو أسلوب شعري يميز الجملة الشعرية، ويمنحها فنية خاصة ومزية لا يمكن لجملة أخرى أن تشترك فيها معها".(حمر العين، خ. 2001، ص:85).

بينما يرى عبد المطلب أن الانزياح ليس هو وحده من يستأثر بالقيمة الجمالية، فهو يرى أن "الانحراف منبه أسلوبي يثير المتلقي، ويرفع من درجة يقظته، ولكنه لا يستأثر بالطاقة التأثيرية والقيمة الجمالية وحده، "بل إن دراسة الأسلوب الجاري على النسق المألوف قد يبهرنا أحيانا أكثر مما يبهرنا النوع الأول؛ ولذا يجب أن نتحرى في الصياغة ما فيها من منبهات تعبيرية، لها طبيعة جمالية من ناحية، ولها استمرارية من جهة أخرى" (عبد المطلب، م. 1994، ص:191).

"فالانزياح إذن يولد جزءا من عملية التواصل الجمالية التي تعود على ذائقتها المتلقي العربي؛ لأن الانزياح يكنز طاقات إبداعية متجددة لا تقولها اللغة المعيارية(بو زيان، أ. 2013، عدد:84، ص:111).

وفي تراثنا العربي القديم إشارة من الجاحظ(ت 255هـ) "إلى حركة الانزياح وما تثيره من دهشة في المتلقي من خلال العلاقة التي تنزاح بالمدلولات عن دوالها الحقيقية(بو زيان، أ. 2013، عدد:84، ص:111)؛ حيث صرح بأن "الشيء من غير معدنه أغرب وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع "(الجاحظ، ع. 2002، ج:1، ص:93).

كما أن أبا حيان التوحيدي (ت 414 هـ) لها اشارة لطيفة لجمالية الانزياح، يرى فيها أن "حد الإفهام والتفهم معروف، وحد البلاغة والخطابة موصوف، وليس ينبغي أن يكتفي بالإفهام كيف كان، وعلى أي وجه وقع، ... والإفهام إفهامان: رديء وجيد، فالأول لسفلة الناس، لأن ذلك غايتهم وشبيه برتبتهم في نقصهم، والثاني لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع، فأما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيدة بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، ... وهذا الفن لخاصة النفس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام"(أبو حيان التوحيدي، ع. 1992، ص:170).

وكما واجه مفهوم الانزياح مشكلة المعيار، فقد وقع في إشكالية أخرى وهي تعدد المصطلح، وقد "وصفت ظاهرة (الانزياح) بعدة تعابير اصطلاحية، مثل الانزياح، الانحراف عن السوية، الجسارة اللغوية، الغرابة، الشذوذ اللغوي، الابتكار، الخلق، التحقيق، الاظهار البدهي"(بن ذريل، ع. 1989، ص:25).

ويناقش ويس تعدد المصطلحات الخاصة بمفهوم الانزياح، فيقول: "وقد لاح لي أن كثرة المصطلحات –وقد جاوزت الأربعين - ربما كانت في وجه من وجوهها تعبيرا عن ترسخ المفهوم وخطره مثلما هي تعبير عن نسبيته وعدم انضباطه"(ويس، أ. 2005، ص:8؛ وغليسي، ي. 2008، ص:189).

إن تعدد مصطلح الانزياح مشكلة لا تقتصر على الدراسات العربية، بل وقعت بها الدراسات الأوربية من قبل، "إن التنظير الغربي قد أسهب في التعبير عن هذا المفهوم الأسلوبي بمصطلحات كثيرة" (وغليسي، ي. 2008، ص:193).

إن مشكلة تعدد المصطلحات ليست ظاهرة مقتصرة على الكتب العربية فقط، بل إنها ظاهرة غربية المنشأ أيضا، ويشير (إيفانكوس) إلى هذه المشكلة بقوله: "وهناك مشكلة أخرى تسبق كل هذا، هي مشكلة المصطلح [إشارة إلى تعدد مصطلح الانحراف]"(خوسيه، م. 1992، ص:28).

وأورد المسدي طائفة من تلك المصطلحات (عبد السلام، م، ص: 99-101)، كما ذكر فضل مصطلحات لم يأتي على ذكرها المسدي(فضل، ص.

د.ت، ص:57)، وأضاف بن ذريل مصطلحات استدركها على كل من المسدي وفضل(بن ذريل، ع. 1983، عدد:141-143، ص:274).

وينظر ويس إلى تعدد مصطلح الانزياح نظرة إيجابية، ولا يعدها مشكلة، بل يعبر هذا التعدد في رأيه على أهمية المفهوم، يقول: "إن هذه المصطلحات تجاوز الأربعين مصطلحا، فلئن كان لهذه الكثرة من دلالة، فإنما هي تشير إلى مدى أهمية ما تحمله من مفهوم وإلى تأصله في الدراسات الغربية قبل العربية. لكن من المؤكد أن هذه المصطلحات ليس في مستوى واحد دلالة على المفهوم؛ فبعض منها -ولعل هذا البعض كثير - يسيء إلى لغة النقد"(ويس، أ. 2005، ص: 33-34)؛ لذا عمد ويس إلى استبعاد بعض المصطلحات: "الإخلال، والاختلال، والشناعة، والخلل، والخطأ، والانحناء، والعصيان، والفضيحة، والجنون، والإطاحة، على الرغم من أن لها أصولا أجنبية"، [لأنها في رأيه] "بعيدة عن اللباقة التي يجمل بالأدوات النقدية أن تتسم بها، كما أن هذه الكلمات ليس لها في المترجمات العربية أو كتابات الباحثين العرب حظ من السيرورة والذيوع الكثير"(ويس، أ. 2005، ص: 33-34).

إن هذا العدد الكبير لترجمة مصطلح الانزياح "يدل على حيوية هذا المفهوم وأهميته في المقاربات النقدية"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:31).

ويوافق الخطيب ويس في أن كثيرا من هذه المصطلحات المترجمة لمفهوم الانزياح تسيء إلى لغة النقد، يقول تعليقا على بعض المصطلحات: "ومن حيث النوع فقد انفرد عن غيره من المصطلحات بألفاظ لا تليق بمصطلح نقدي أو مفهوم أدبي يحتل رقعة مهمة من البحوث النقدية الحديثة، فكانت مصطلحات مثل: الشناعة، والشذوذ، والفضيحة، والانتهاك (فضل، ص. 1998، ص:57)، والخرق، والمخالفة، والانحراف، والجنون(فضل، ص. 1998، ص:57)..الخ، وهي مصطلحات تفصح عن إزدراء واستهانة بأخص ما في "الشعرية"، ولذلك فقد ولدت هذه المصطلحات ميتة ولم تتجاوز أصحابها"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:31؛ الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:23).

وقد سوغ فضل رفضه لأغلب هذه المصطلحات الدالة على الانزياح في معرض حديثه عن مصطلح الانحراف قائلا: "وكلها تقريبا كلمات ذات إيحاءات أخلاقية موسومة. مما يبرر بعض ردود الفعل الرافضة لها، على اعتبار ما يمكن أن تفضي إليه في نهاية الأمر من العودة إلى النظرية التي كانت شائعة في القرن الماضي، والتي كان يعد الفن بمقتضاها ظاهرة مرضية، والشاعر إنسانا عصابيا(فضل، ص. 1998، ص:57)".

"ومن خلال البعد السلبي الذي يعكسه مصطلح الانحراف فقد عمد بعض الباحثين للتفتيش عن أسماء أخرى تصف ظاهرة الخروج على المألوف وانتهاك حدود الاستعمال التي اصطلح عليها، فقد وصفت مثل هذه الظاهرة بالانزياح(عبد السلام، م. ص ص: 74-97-98-100-102-103-104-105-106-162-163-164-165-218.)، وهو مصطلح كثير ترداده في الدراسات النقدية العربية الحديثة(الربابعة، م. 2014، ص:58).

وتعليقا على كلام الخطيب في أن كثيرا من المصطلحات الدالة على الانزياح، ومنها الانحراف على ما ذكر قد ولدت ميتة ولم تتجاوز أصحابها(الخطيب، أ. م. 2009، ص:31؛ الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:23)، صحيح يمكن لبعض المصطلحات التي ذكرها بالفعل لم تتجاوز أصحابها وقد ولدت ميتة، لكن هذا الكلام غير صحيح بالنسبة لمصطلح الانحراف، الذي شاع في الكتابات النقدية إلى جانب الانزياح والعدول، يقول ويس حول شيوع هذه المصطلحات الثلاثة: "إن مصطلحات الانحراف و العدول والانزياح هي أقوى المصطلحات وأكثرها استعمالا وتداولا، ولكن هذه الثلاثة لم تكن على مستوى واحد"(ويس، أ. 2005، ص: 8).

كما أن فضل يرى أن مصطلح الانحراف مصطلح ذو أهمية بارزة، يقول: "ولكن لا ينبغي أن نغفل أهمية بعض المصطلحات الشعرية التي تلعب دورا أساسيا في القضايا البلاغية من منظور شعري، وأبرزها في تقديرنا هو مصطلح "الانحراف" الذي تعددت صيغه في اللغة العربية .فمرة يبحث الرفاق له عن

معادل بلاغي قديم وهو "العدول" فيقلمون أظافره ويثلمون حدته، ومرة أخرى يلجأ الباحثون إلى كلمة ذات إيحاء مكاني واضح هي "الانزياح" تفاديا للإيحاء الأخلاقي المستثمر في كلمة "انحراف"(فضل، ص. 1998، ص:57).

بينما يرفض الخطيب مصطلح الانحراف "على الرغم من أن "الانحراف" ساد كثيرا فإنه لا يحظى لدى كثيرين بالقبول، لأنه ليس خالصا لهذه الدلالة، بل إنه مشغول بدلالات أخرى في علم النفس، لا يمكن للغة النقد أن تتغاضى عنها، بل تدعو إلى رفض المصطلح"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:34).

ويذهب الخرشة إلى أن بعض الباحثين يستبعد مصطلح الانحراف لدلالته السلبية، يقول: "فإن المصطلحات الأكثر شيوعا هي :الانزياح، والعدول، والانحراف، وإن كان بعض الباحثين يستبعد مصطلح الانحراف لما يحمله من بعد سلبي" (الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:23).

وفي مقابل هذا الرفض لمصطلح الانحراف عند أغلب الباحثين نجد أن مصطلح الانزياح قد ساد عند الأكثرية وشاع وانتشر بين الدارسين، "إن مفهوم الانزياح مفهوم غربي ساد في النصف الثاني من القرن العشرين، ووصل متأخرا إلى الدرس النقدي العربي"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:33)، "وعلى أن (الانحراف) لا يخلو - أيضا - من دلالة أخلاقية سلبية، فإنه مفروض بقوة التداول والشيوع، لذلك يظل إلى جانب (الانزياح) يتنازعان المفهوم، وإذا كان لا بد من مفاضلة بينهما، فإن (الانزياح) –في تقديرنا - أمثل وأفضل"(وغليسي، ي. 2008، ص: 203).

ويبين ويس سبب مفاضلته لمصطلح الانزياح على غيره من المصطلحات "إذا كان للمرء أن يفاضل بين "الانحراف" و "العدول" و "الانزياح" فلربما فَضَل "الانزياح" أخويه، لأمور نحسبه يمتاز بها:

1 -فهو يعد ترجمة دقيقة للمصطلح الفرنسي (*Ecart*)، وأن تشكيل "الانزياح" الصوتي وما فيه من مد، من شأنه أن يمنح اللفظ بعدا إيحائيا يتناسب وما يعنيه في أصل جذره اللغوي من "التباعد والذهاب".

2 - إن كل من لفظي "العدول" والانحراف" يرد في كتب بلاغية ونقدية في معان كثيرة ليست بنقدية ولا أسلوبية فإن "الانزياح" يمتاز من ذلك بأن دلالاته –إذ يرد في كتب أسلوبية - منحصرة تقريبا في معنى فني. وهذا يعني أنه مصطلح لا يحمل لبسا من أي نوع كان. ثم هو لا يحمل ما يحمله "الانحراف" من بعد أخلاقي سيئ يجعل المرء غير مطمئن إليه"(ويس، أ. 2005، ص: 57).

"وربما يكون مصطلح "الانزياح" بجديته، وعدم انشغاله، وبعده عن اللبس، وتلاقيه في معنى البعد عن المفهوم الأصلي، دون محاولة خلق جدل يزيد المشكلة تشابكا وتعقيدا، في الوقت الذي يخبو فيه بريق المصطلحات الأخرى... وربما يكون مصطلحا مناسبا، يرسخ اعتماده قضية توحيد المصطلح، بعد أن ثبتت صلاحيته في كثير من الكتب النقدية"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:35).

ويجعل ويس مصطلح الانزياح في المرتبة الثانية بعد الانحراف من حيث الاستعمال "ويقع مصطلح الانزياح في مرتبة ثانية بعد "الانحراف" من حيث شيوع استعماله لدى الأسلوبيين والنقاد العرب"(ويس، أ. 2005، ص: 48).

وقد اختار المسدي مصطلح "الانزياح"، بينما اختار فضل "الانحراف" وأشار إلى أن هناك من بحث لهذا المصطلح عن معادل بلاغي قديم هو "العدول"(فضل، ص. 1998، ص:57)، واختار مرتاض "الانزياح" لما يدل عليه من دلالة "المروق عن المألوف في نسج الأسلوب بخرق التقاليد المتواضع عليها بين مستعملي اللغة. فكأن (الانزياح) خرق للقواعد المدرسية المعيارية للأسلوب، وتكون الغاية من وراء الاستعمال الانزياحي توتير اللغة لبعث الحياة والجدة والرشاقة والجمال والعمق والإيثار والاختصاص، وما إلى هذه المعاني التي تراد من تحريف استعمال أسلوبي عن موضعه"(وغليسي، ي. 2008، ص: 203؛ مرتاض، عبد الملك. 1994، ص:130).

وفي خضم هذه الأبحاث التي دارت حول الانزياح، حاول بعض الباحثين إيجاد معادل لمصطلح الانزياح في تراثنا العربي، فطرحوا السؤال التالي: هل عرف التراث العربي القديم الانزياح؟

"اشتغلت البلاغة العربية على أهم قضية من قضايا الشعرية الحديثة، وهي مسألة الانزياح بوصفه ضرورة وباعتباره إمكانية إبداعية وتقنية وجمالية، وخاصية شعرية تمتزج فيها خصائص النص بجماليات القراءة"(حمر العين، خ. 2001، ص:15).

وتراثنا العربي تناول قضية الانزياح في دراستهم للشعر، ولكن ليس بمفهومه الحديث، فقد انتبه تراثنا إلى شيء من ذلك، كما في هذه العبارة لابن جني "ومن المجاز كثير من باب الشجاعة في اللغة: من الحذوف والزيادات، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى والتحريف"(ابن جني، أ. ف، 2008، ج:2، ص: 210).

وترى حمر العين أن ما أسماه ابن جني بشجاعة العربية -على الرغم من أنه يرى التركيب الذي ينحرف عن الاستعمال القاعدي يمثل ضرورات - فإنه يحفل بالبنية الشعرية المتولدة عن هذا الانحراف ويقف بجانب الشاعر(عيد، ر. 1993، ص:150).

وقد أشار مرتاض "إلى أن البلاغيين العرب القدامى قد تعاملوا مع مفهوم الانزياح تحت مصطلحات مختلفة، كالتقديم والتأخير والاختصاص والحذف والالتفات.." (وغليسي، ي.2008، ص:200؛ مرتاض، عبد الملك. 1994، ص:130. 134).

واستعمل مرتاض مصطلحات أخرى رأى أنها تؤول كلها إلى الخروج عن (المعيار)، والذي يراه استعمالا عاما للغة، وهو ما كان يعرف لدى القدماء اللغويين العرب تحت مصطلح السماع(مرتاض، عبد الملك. 1994، ص:129. 133).

وذكرت الباحثة حمر العين أن مفهوم الانزياح عرف بمترادفات عديدة أهمها: الخروج والتوسع، والتجوز، والتحويل، والالتفات.. وتأكد كلام عبد الله مرتاض في أن كلها مترادفات تدل في آن واحد على قوة الكلام المنزاح، وتتفق هذه المترادفات على أن العدول هو خروج على غير مقتضى الظاهر(حمر العين، خ. 2001، ص:4).

ويشير الخرشة إلى ما أشار إليه مرتاض وحمر العين من أن القدماء أطلقوا على الأساليب التي تخرج عن المألوف عدة مصطلحات تقترب من مصطلحات المحدثين، وأشهر مصطلحاتهم الدالة على الانزياح هي "الاتساع أو التوسع"(الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:28).

ويعد ابن جني التوسع بالمجاز مظهر من مظاهر العدول، يقول: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة، وهي: الاتساع والتوكيد والتشبيه. فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة (ابن جني، أ. ف، 2008، ج:2، ص: 208)، ويؤكد ابن جني على أن عدم تحقق هذه المعاني في الكلام يؤدي إلى عدم إمكانية العدول وتحققه.

وأطلق قدامة بن جعفر(ت327 هـ) في (نقد الشعر) على الخروج عن المألوف(الإرداف) وجعله مرادفا للعدول فقال: "وهو أن يريد الشاعر دلالة معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع"(قدامة، ب. ج. د. ت، ص: 157).

بينما أطلق عليه عبد القاهر الجرجاني(ت 471هـ) "معنى المعنى" وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، وتعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"(الجرجاني، عبد القاهر. 1992، ص:263).

ويرى الخرشة "أن الجرجاني في حديثه عن المعنى، و معنى المعنى يقترب كثيرا من مفهوم الانزياح في الدراسات الأسلوبية المعاصرة"(الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:27).

وقد عدّ عبد القاهر الجرجاني الاستعارة المفيدة "صورة من صور الخروج عن المألوف، وانتظار اللامنتظر، وتوقع اللامتوقع، وهي ضرب من ضروب الانزياح الأسلوبي، ومن هذا المنطلق فقد تمثل الانزياح في كثير من نماذج الشعر العربي القديم"(الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:28).

لقد تعددت أسماء هذه الظاهرة بشكل كبير ولكنها كانت في معظمها تشير إلى وصف ظاهرة واحدة فقد سمي بالعدول(الربابعة، م. 2014، ص:59 ؛ صمود، ح.1981، ص:52)،وهو اسم مأخوذ من الموروث البلاغي والنقدي العربي القديم، وقد حرص بعض الباحثين على مثل هذه التسمية وجعلوها معادلة للمصطلح الغربي الانزياح(الربابعة، م. 2014، ص:59 ؛ عبد السلام، م. ص:52؛ فضل، ص. 1998، ص:57).

ويبرز الأساس المبدئي لعملية العدول من خلال نص الفارابي " فإذا استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات لها فصار واحد واحد لواحد واحد وكثير لواحد أو واحد لكثير، وصارت راتبة على التي جعلت دالة على ذواتها، صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوز في العبارة بالألفاظ، فعبر بالمعنى بغير اسمه الذي جعل له أولا وجعل الاسم الذي كان لمعنى ما راتبا له دالا على ذاته عبارة عن شيء آخر كان له به تعلق ولو كان يسيرا إما لشبه بعيد وإما لغير ذلك، من غير أن يجعل ذلك راتبا للثاني دالا على ذاته. فيحدث حينئذ الاستعارات والمجازات والتجرد بلفظ معنى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه متى كان الثاني يفهم من الأول، وبألفاظ معان كثيرة يصرح بألفاظها عن التصريح بألفاظ معان أخر إذا كان سبيلها أن تقرن بالمعاني الأول متى كانت تفهم الأخيرة مع فهم الأولى، والتوسع في العبارة بتكثير الألفاظ وتبديل بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها. فيبتدئ حين ذلك في أن تحدث الخطبية أولا ثم الشعرية قليلا قليلا"(الفارابي، أ. ن، 1990، ص:141).

وفي نظرة فاحصة إلى الأمثلة التي أوردها كل من ابن جني وابن الاثير(ابن الاثير، ض. د، د. ت، ص: 64. 70)وابن رشيق(ابن رشيق، أ. ع. ح. 1981، ج: 2، ص: 93) في حديثهم عن "التوسع" أو "الاتساع" يرى الخرشة "أن هذه الأمثلة والشواهد تنضوي تحت مفهوم "الانزياح" الذي شاع في الدراسات الأسلوبية الحديثة، ولذلك لم يجد بعض الباحثين المعاصرين حرجا في أن يجعلوا مصطلح

"الاتساع" دالا على مفهوم الانزياح الذي تهتم به الدراسات النقدية الحديثة اهتماما كبيرا"(الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:29).

"وإلى جانب هذا المصطلح [وهو مصطلح العدول] الذي تردد في الموروث النقدي والبلاغي مصطلحات أخرى استخدمها القدماء للدلالة على مخالفة الاستعمال العادي للغة، والخروج عن الأنماط التعبيرية المتواضع عليها، ومن أبرز هذه المصطلحات التي ترددت عند القدماء: العدول، والغرابة، والتغيير، والتخييل، والكذب، والتجوز، وإعمال الحيلة، ومنافرة العادة"(الربابعة، م. 2014، ص:65).

"ومما لا شك فيه أن هذه المصطلحات قد استوعبت بشكل أو بآخر مفهوم الانزياح الذي قامت عليه الدراسات الأسلوبية الحديثة"(الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:30).

ويؤكد الخرشة في النهاية "أن ما جاء به المحدثون من توضيح للمصطلح بأنه خرق لقانون للغة وخروج عن المعيار، هو ما جاء به عبد القاهر الجرجاني وغيره من القدماء، والفرق بالتسمية من عدول واتساع إلى انزياح وانحراف ليس فرقا جوهريا يمس صلب الموضوع، لكن يمكن القول إن المحدثين تناولوا هذا المصطلح بالدراسة والنقد بمنهجية أكثر تطورا وأكثر اتساعا وشمولا مما عرفه القدماء"(الخرشنة، أ. غ. 2014، ص:30).

إذن القدماء عرفوا مفهوم الانزياح وعملوا على دراسته وأقروا بأهميته بالنسبة للشعر، ويقر بهذه الحقيقة بوزيان، يقول: "وهكذا تعامل النقد القديم مع ظاهرة الانزياح بوصفه إمكان لا ينضب من جهة، وبصفها طاقة اللغة الشعرية من جهة ثانية، وعلى أنها عامل جمالي في النص من جهة ثالثة. وكان ذلك تمظهر من خلال مباحث الإعجاز والمجاز والشعرية، بوصفها مجالات تبحث في اللغة من خلال المعيار وما يفارقها، فكان المجاز مظهرا لاتساع اللغة العربية، ومتنفسا للشاعر، مظهرا للفرادة والتمايز والإبداع"(بو زيان، أ. 2013، ص:117).

وخرج الخطيب في بحثه الموسوم "الانزياح الشعري عند المتنبي" بنتيجة هي نفسها التي أقرها بوزيان، ومفادها أن نقادنا القدامى وإن لم يسموا الأشياء بسمياتها، وهذا ليس مطلوبا منهم على حد رأيه "فإنهم قد عرفوا انزياح اللغة الشعرية، وتطرقوا إلى أهم عناصرها، وسوغوا للشعر هذا الانزياح اعتمادا على معرفتهم الدقيقة باللغة الشعرية، فأقاموا فارقا بين الفصيح وغيره، وبين الخطابة والشعر، وبحثوا في الضرورة الشعرية، ولم يفته التفريق بين الشعر والنظم، وبين اللغة الشعرية واللغة العلمية، وتشكل هذه العناصر عماد نظرية الانزياح الشعرية"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:54).

إن ما شاع عند القدامى بمصطلح الضرورة الشعرية الخاص بالشعر يعتبر مظهرا من مظاهر الخروج عن المألوف والقواعد الثابتة؛ لذلك راح كثير من الباحثين يدرسونه في محاولة للتقريب بينه وبين مفهوم الانزياح الحديث.

فقد كانت نظرة القدامى للانزياح على أنه رخصة لا خير فيها (ابن رشيق، أ. ع. ح. 1981، ج: 2، ص: 269)، وعند آخرين خطأ أو غلط أو عيب أو قبيح(ابن فارس، 1980، ص:21، 23) أو قبيحة(أبو هلال العسكري، ح. 1998، ص:150). أما ابن جني فقد كانت له نظرة مختلفة للضرورة الشعرية فهو يرى أن الشاعر يرتكب الضرورة غير مضطر بل مختار لها، قادر على تركها(ابن جني، أ. ف، 2008، ج:2، ص: 81، 165، 177، 297، 496).

يقول: "فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانخراق الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جَشِمه منه، وإن دل من وجه على جوره وتعسفه، فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله، وتخمطه [أي تكبره]، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته، بل مَثَله في ذلك عندي مثل مُجري الجَمُوح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام. فهو وإن كان ملوما في عنفه وتهالكه، فإنه مشهود له بشجاعته"(ابن جني، أ. ف، 2008، ج:2، ص: 165).

وهذا الكلام يأتي تأكيدا لكلام الخليل بن أحمد حول الضرورة الشعرية، يقول: "بأن الشعراء هم أمراء الكلام يصرفونه أنى شاؤوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم في إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده... فيحتج بهم ولا يحتج عليهم"(القرطاجني، ح. 1981، ص: 143).

ثم يأتي كلام المتنبي تأكيدا لما ذهب إليه الخليل، يقول: "قد يجوز للشاعر من الكلام مالا يجوز لغيره، لا للاضطرار إليه، ولكن للاتساع فيه واتفاق أهله عليه، فيحذفون ويزيدون"(الجرجاني، د. ت. ص:450).

ويرى القرطاجني أن الشعراء لا يقولون شيئا إلا ولهم به وجه من الصحة، لذا يجب تأويل كلامهم على وجوه من الصحة وعدم تخطئتهم(القرطاجني، ح. 1981، ص: 144).

يقول (برونو) مبررا ارتكاب الشاعر للانزياح هو "أن الشاعر لا يتحدث كالآخرين، ولهذا تجيء لغته شاذة، وهذا الشذوذ يكسبها أسلوبا"(كوهن، ج. 1986، ص:15).

بينما كان لبعض النحاة موقفا مغايرا للموقف السابق، فقد وقفوا للشعراء بالمرصاد يحصون عليهم خروجهم عن القواعد الثابتة ويطالبونهم بالتعديل والتصويب، "وإذا رحنا نستقصي الخلاف الذي نشأ بين الشعراء والنحاة فإننا واجدون غير قليل من الانتقادات والردود على الانتقادات، وكأن الصراع قائم فعلا بين اللغة الشعرية التي ترفض التقعيد، وتسوغ لنفسها الانزياح عن القواعد التي تريد أن تكبح جماحها، والقواعد النحوية التي تريد الحد من هذه الجماح"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:45).

لقد سار كل من النحاة والبلاغيين في اتجاهين متضادين "إذا كان النحاة واللغويين قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي المتمثل في جملة القواعد التي قاسوا عليها الكلام، فإن البلاغيين ساروا في اتجاه أخر حيث أقاموا مباحثهم على أساس (العدول) عن هذه المثالية و(الانحراف) عنها في الأداء الفني، وليس معنى هذا إنكار البلاغيين للمستوى المثالي الذي أقامه النحاة واللغويون بل إن ذلك

يؤكد إدراكهم لتحققه بحيث جعلوه الخلفية الوهمية وراء الصياغة" (عبد المطلب، م. 1994، ص:269).

"وقد وصل هذا الخلاف إلى الذروة حين انتقل السجال إلى الضرورة الشعرية، وهي التي تقبل من الشاعر خرق القواعد النحوية لدوافع فنية"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:45).

"إن كبار النحاة كانوا يتفهمون خصوصية اللغة الشعرية، ويتسامحون بانحرافها وخروجها على القاعدة"(الخطيب، أ. م. 2009، ص:46)، ويرى الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة "أن الشاعر يجوز له في كلامه وشعره ما لا يجوز لغير الشاعر في كلامه"(الحندود، إ. 2001، ص:407).

بينما وقف نحاة آخرون يعترضون على الشعراء "يروى أن الفرزدق لما مدح يزيد بن عبد الملك بقصيدة يقول فيها:

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يلقى، وأرحلنا ... على زواحف تزجى، مخها رير

فقال له عبد الله بن أبي أسحق : أسأت, موضعها رفع، وإن رفعت أقويت، إنما هو "مخها رير" وكذلك قياس النحو"(الجمحي، ب. س. د. ت. ج:1، ص:17؛ السيرافي، 1974، ج:2، ص:271). فغضب الفرزدق وهجاه ببيت تعمد فيه اللحن، يقول فيه:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكنّ عبد الله مولى مواليا السيرافي، 1974، ج:2، ص:271).

ويتعمد الفرزدق أن يقول: مولى مواليا، بدلًا من "مولى موالٍ" ويظهر أن الضرورة الشعرية لا تعد عجزا ولا قصورا من الشاعر، فالشاعر قادر على الإتيان بلفظ يوافق القواعد الثابتة، لكن البيت الشعري وقريحة الشاعر وإلهامه يأبى إلا هذه اللفظة، وإن كانت خارجة عن القواعد الثابتة والمألوفة.

قائمة المراجع:

1 -ابن الأثير؛ ضياء الدين.(د.ت) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

2 -إيفانكوس، خوسيه ماريا بوثويلو.(1992)نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب.

3 -بن ذريل؛ عدنان(1983)التحليل الألسني للشعر، لجويل تامين وجان مولينو، مجلة الموقف الأدبي، ع141 -143 .

4 -بو زيان؛ أحمد.(2013)شعرية الانزياح (قراءة في المنجز النقدي العربي القديم)، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات،ع84.

5 -الجاحظ؛ عمرو بن بحر.(2002) البيان والتبيين، بيروت، دار ومكتبة الهلال.

6 -جاد ؛عزت محمد.(2002) نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

7 -الجرجاني؛ عبد القاهر.(1992) دلائل الاعجاز،ط3، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني.

8 -الجمحي؛ ابن سلام .(د.ت) طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، جدة، دار المدني.

9 -ابن جني؛ أبو الفتح عثمان.(2008) الخصائص،ط3، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية.

10 -حمر العين؛ خيرة.(2001) شعرية الانزياح،ط1، إربد،مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر.

11 -الحنـدود؛ إبـراهيم بـن صـالح.(2001) الضـرورة الشـعرية ومفهومهـا لـدى النحويين دراسة على ألفية بن مالك، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية.

12 -حني؛ عبد اللطيف.(2011)جمالية الانزياح الاستعاري في ديوان عبد القادر بطبجي مداح الأولياء الصالحين. مجلة الخطاب، المغرب، العدد8.

13 -أبو حيان التوحيدي؛ علي بن محمد بن العباس.(1992) المقابسات، ط2، تحقيق: الحسن السندوبي، الكويت ،دار سعاد الصباح.

14 -بوخاتم؛ مولاي علي.(2005)مصطلحات النقد العربي السيماءوي؛ الإشكالية والأصول والإمتداد، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

15 -الخرشة، أحمد غالب(د.ت) أسلوبية الانزياح في النص القرآني، ط1، عمان، الأكاديميون للنشر والتوزيع.

16 -الخطيب؛ أحمد مبارك.(2009) الانزياح الشعري عند المتنبي، ط1، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع.

17 -بن ذريل؛ عدنان (1989) النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

18 -الربابعة؛ موسى.(2014) الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط1، عمان، دار جرير.

19 -ابن رشيق؛ أبو علي الحسن.(1981) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط5، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل.

20 -ريفاتار.(1974) محاولات في الأسلوبية الهيكلية، تقديم :عبد السلام المسدي، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس، ع10.

21 -ريفاتير.(1993)معايير تحليل الأسلوب، ترجمة حميد لحميداني، المغرب، منشورات دار سأل.

22 -ساندرس ؛ فيلي.(2003)نحو نظرية أسلوبية لسانية،ط1 ، ترجمة: خالد محمود جمعة، دمشق ،دار الفكر.

23 -السيرافي. (1974) شرح ابيات سيبويه، تحقيق: محمد علي الريح هاشم، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

24 -صمود؛ حمادي.(1981)التفكير البلاغي عند العرب، تونس، منشورات الجامعة التونسية، تونس.

25 -صولة؛ عبد الله.(1982) اللسانيات والأسلوبية، مجلة الموقف الأدبي.

26 -عبد المطلب؛ محمد.(1994) البلاغة والأسلوبية، ط1 ،القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر.

27 -عزام؛ محمد.(1989) الأسلوبية منهجا نقديا، ط1 ، دمشق، وزارة الثقافة.

28 -عياد؛ شكري محمد.(1985) اتجاهات البحث الأسلوبي،ط1 ،الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر.

29 -عياشي ؛ منذر.(1990) مقالات في الأسلوبية دراسة، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

30 -عيد؛ رجاء.(1993) البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة معارف الاسكندرية.

31 -الفارابي؛ أبو نصر.(1990) الحروف، ط2 ، تحقيق: محسن مهدي، بيروت، دار المشرق.

32 -أبو فارس.(1980)ذم الخطأ في الشعر، تحقيق: رمضان عبد التواب، مصر، مكتبة الخانجي.

33 -فضل، صلاح. بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

34 -فضل، صلاح.(1998)علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،ط1،القاهرة، دار الشروق.

35 -القاضي الجرجاني؛ علي بن عبد العزيز.(د.ت) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، مصر، مصطفى البابي الحلبي.

36 -قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

37 -القرطاجني؛ حازم(1981) منهاج البلغاء وسراج الأدباء،ط2، تحقيق :محمد الحبيب بلخوجه، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

38 -كليرفيل.(1964) نظرة في معجم المصطلحات الطبية، ترجمة: مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط، ومحمد صلاح الدين الكواكبي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد39،ج4

39 -كوهن؛ جان.(1986) بنية اللغة الشعرية ط1،ترجمة: محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر.

40 -المرادي؛ محمد هادي و قاسمي؛ مجيد.(2012)الرد على منظري انزياحية الأسلوب، رؤية نقدية، مجلة إضاءات نقدية، ع 5.

41 -المسدي؛ عبد السلام. (د.ت) الأسلوبية والأسلوب،ط3،تونس، الدار العربية للكتاب.

42 -المسدي؛ عبد السلام.(1984) قاموس اللسانيات، تونس، الدار العربية للكتاب.

43 -ابن منظور؛ جمال الدين(1993) لسان العرب، بيروت، دار صادر .

44 -نظري؛ علي و وليئي؛ يونس: ظاهرة الانزياح في شعر أدونيس، مجلة دراسات الأدب المعاصرة ، ع17.

45 -أبو هلال العسكري؛ الحسن بن عبد الله (د.ت) الصناعتين، تحقيق: علي البجاري وأبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية.

46 -وغليسي؛ يوسف.(2008)مصطلح [الانزياح] بين ثابت اللغة والمعيارية الغربية ومتغيرات الكلام الأسلوبي العربي، مجلة علامات في النقد، السعودية، ع64.

47 -وهابي؛ عبد الرحيم.(2004)نظرية الانزياح الشعري، مجلة جذور، السعودية، ع18.

48 -ويس؛ أحمد محمد.(2005) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

49 -اليافي؛ نعيم.(1997) أطياف الوجه الواحد؛ دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.